فى الأمم السامية

للأستاذ محمد محمود جمعة

أستاذ فى الآداب ورفيق بالمجمع الملكى البريطانى للأجناس البشرية
وعضو الجمعية الملكية البريطانية للأبحاث الأسيوية
والمدرس بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن

— ٢ —

مهد الساميين

من أين أتى الساميون ؟ وفى أى البيئات نشأت حضارتهم الأولى ؟ هذا سؤال عويص لم يهتد العلماء إلى الاجابة عليه بعد ، ولهم فى ذلك آراء مختلفة وبحوث طويلة سنلخصها لك فيما يلى تلخيصاً ، ثم نشفعها برأينا فى ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى

(١) الرأى الأول - رأى القائلين بأن بابل هى المهد الأول للساميين . وهو رأى فون كرمر وغويدى وهومل وغيرهم من العلماء . وأول من نادى بهذا الرأى هو فون كرمر فى مقالين نشرهما فى سنة ١٨٧٥ فى العددين الأول والثانى من المجلد الرابع من صحيفة Das Ausland . وبعد أن سرد عددا من الكلمات المألوفة فى مختلف اللغات السامية ، لاحظ أن لفظ الجمل يوجد فى جميع تلك اللغات ، على حين أنه ليس بينها لفظ واحد مشترك يدل على النخل أو التمر أو النعام مثلا ، فاستنبط من ذلك أن الساميين عرفوا الجمل يوم أن كانوا لا يزالون أمة واحدة . ثم نظر فى أى الجهات يوجد الجمل حيث لا أثر للنخل والتمر والنعام ، فوجد ذلك فى هضاب آسيا الوسطى قريبا من منبع سيحون وجيحون ، فقاده هذا إلى القول بأن ذلك هو المكان الأول الذى هاجر منه الساميون الأول ، وأن هجرتهم تقدمت هجرة الآريين والشعوب الجرمانية . وهو يعتقد أن الساميين بعد نزوحهم من تلك الجهات ، ألقوا عصا تسيارهم ببلاد ما بين النهرين ، التى هى

فى رأيه أقدم مراكز الحضارة السامية (١)

وفى سنة ١٨٧٩ نشر العالم الايطالى اغناطيوس غويدى مقالا عن مهد الساميين ظهر فى جملة ما ظهر فى صحيفة Reale Academia dei Lincei وتشبه النتيجة التى وصل إليها تلك التى قررها فون كرمر . إلا أن طريقته فى الاستنباط كانت أوسع دائرة وأفسح مجالا . فبعد أن سرد مختلف الكلمات التى تدل على تضاريس الأرض ، سهولها وجبالها ، وهادها ونجادها ، وأسماء الفصول والمناخ ، والشمس والقمر ، واختلاف الليل والنهار ، وما على سطح الأرض من حيوان ونبات ، وماء وجماد ؛ قرر أن بابل هى مهد الساميين الأول ، وأن هجرتهم إليها كانت من الجنوب الغربى لبحر الخزر (٢) .

ويميل إلى قبول هذا الرأى الاستاذ دريفر فى الطبعة الثانية من كتابه « استعمال الأفعال فى اللغة العبرية » (٣) .

ولا تختلف آراء هومل التى نشرها فى سنة ١٨٧٩ عن ذلك كثيراً ؛ وهو يرى أن وادى الفرات وأرض بابل هى مهد الساميين الأول . وأن أناساً نزحوا من بابل إلى مصر واستعمروها ، وأن حضارة الثانية مستمدة من حضارة الأولى (٤)

هذا هو الرأى الأول ، وهو رأى طائفة من العلماء فقط ، وليس عليه الجمهور ؛ ونلاحظ هنا أن الطريقة التى اتبعها أصحاب هذا الرأى ليست هى الطريقة القويمة للبحث العلمى الصحيح ، وقد رفض نولدكه قبول هذا الرأى (٥) .

ويرى ونحن معه أن عدم وجود كلمة مشتركة بين جميع اللغات السامية لمسمى من المسميات ، لا يدل على أن الساميين كانوا يجهلون المسمى الذى تدل عليه الكلمة .

---

(١) راجع Wright's Comparative Grammar of the Semitic Languages, P. 5.

(٢) I bid P.6.The title of Guidi's paper is «Della sede primitiva dei popli Smitici »

(٣) راجع Driver, Use of the Tenses in Hebrew, P. 250 n.

(٤) راجع Hommel, Die semitischen Volken und Sprachen,P.68

(٥) راجع Noldeke, Semitischen Sprachen, P. 3 ff.

إذ ربما كان ذلك راجعاً إلى حلول كلمة محل كلمة أخرى لأسباب وظروف لا يمكننا الآن تعليلها.

(٢) الرأى الثانى — رأى القائلين بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين الأول، وهو رأى سبرنجر وسيس وشريدر ودى جويه وغيرهم من جمهرة العلماء. وأول من صدع بهذا الرأى هو العلامة سبرنجر « Sprenger » فى سنة ١٨٦١ (١) وقد بنى دعواه على أسس اجتماعية وعمرانية، وبين بوضوح أن الأمم الزراعية لا ترجع القهقرى إلى طور البداوة والقيام على الأنعام، وأن العكس فى ذلك صحيح.

وقد برهن على أن نجداً هى المهد الأول الذى درج فيه الساميون، وأنها هى التى وسمتهم بميسمها وطبعتهم بطابع الصحراء الذى لا يمحى؛ ثم ختم بحثه فى موضع آخر بقوله: « فى اعتقادى أن الأمم السامية إن هى إلا طبقات تترى من العرب نزحت من الجزيرة العربية طبقة أثر أخرى؛ ومن ذا الذى يعلم كم طبقة من تلك الطبقات قد تقدمت هجرة الكنعانيين الذين نجدهم فى بدء العصور التاريخية الأولى (٢) ».

وفى سنة ١٨٧٢ قرر الأستاذ سيس فى مقدمة كتابه « نحو اللغة الأشورية » (٣) أن جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هى المهد الأول للساميين، وأنها هى الجزء الوحيد من الدنيا الذى بقى محتفظاً بخواصه السامية الخالصة، وأن الخصائص الشعبية: كالضراوة وشدة العقيدة وقوة الخيال وحب الاستقلال — ترجع كلها إلى أنهم نشئوا نشأة صحراوية خالصة.

وفى سنة ١٨٧٣ وصل شرادر (٤) إلى النتيجة نفسها بعد استقراء وتقص للعلاقات الدينية واللغوية والجغرافية والتاريخية بين الأمم السامية المختلفة.

---

(١) راجع Sprenger, Das Leben und Lehre des Mohammad 1, P. 241.

(٢) راجع Alte Geographie Arabiens, P. 293 and Wright's Comparative Grammar, P. 7.

(٣) راجع A. H. Sayce, Assyrian Grammar, P. 13.

(٤) راجع مقالة Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitz der Semiten"z DMG, XXVII, P. 420 ff.

وفى سنة ١٨٨٢ أعلن « دى جويه » De Goeje، فى خطابه لدى المجمع العلمى أنه يؤثر الرأى القائل بأن وسط الجزيرة العربية هو المسكن الأول للجنس السامى على وجه العموم . وهو يرى ما رآه « سبرنجر » من قبل وما رآه ابن خلدون من قبلهما ، من أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها ، وأن خشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، وأن التمدين غاية للبدوى يجرى إليها ويسعى لها ، وأننا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية المصر ، وعدلوا إلى الدعة والترف الذى يهيئه الحضر ؛ ويرى فوق ذلك أن أعراب الجزيرة العربية نزحوا طبقاً بعد طبق إلى الجهات الدنيا من سوريا وبابل وعمان واليمن ، طلباً للخفض والدعة ، وأن غيرهم من الأعراب قضى على آثارهم فى فترات مختلفة ، ثم غلبهم على مساكنهم التى سكنوها من قبل ، وألجأهم إلى أن يضربوا فى الأرض عرضاً وطولا ؛ وهكذا دواليك حتى عمر الساميون بالتدريج ما سقت دجلة والفرات إلى حدود أرمينية وكردستان وبعض جهات أخرى من أفريقية ووادى النيل ؛ وقد نبهنا « دى جويه » إلى جودة مناخ الجزيرة العربية وأثره فى وفرة عقول العرب وفراهة أجسامهم (١) ثم هو إلى ذلك يرى أن العربية هى أقرب اللغات إلى السامية الأولى . ونحن لا نوافق « دى جويه » على ملاحظته الأخيرة ، ولنا فى ذلك رأى خاص سندلى به فى مكانه إن شاء الله تعالى

وفى سنة ١٨٩٠ قبل الاستاذ « ريت » Wright آراء « دى جويه » وأوردها فى شىء من التفصيل فى كتابه « مقارنة نحو اللغات السامية » ثم شفعها بملاحظة قصيرة قال فيها : « إن اجتياح العرب ما حولهم من المدن والأمصار فى العصور التاريخية الأولى ، كثيراً ما تكرر فى العصور التاريخية الحديثة

« فى القرون الأولى للمسيحية كانت دولة تدمر محكومة بفرقة من تجار العرب وأشرافهم » (٢) .

---

(١) راجع Het Vaderland der semitische Volken.

(٢) راجع W. Wright, Comparative Grammar of the Semitic Languages P. 8.

ونحن نقول : إن انسياب العرب تحت راية الإسلام فى فتوحه الأولى، ونزوع القبائل إلى الأمصار، وغلبة كل قوم على ما أمكنهم من الأرضين ، يكاد يصور لنا بدقة حركات الساميين الأولى وتدفقهم المتواصل إلى ما حولهم من القرى والأمصار فى العصور التاريخية الأولى وعصور ما قبل التاريخ . هذا ، وقد حذا حذو من ذكرت من العلماء « هوبرت جريم » فى كتابه « محمد » (١) و « بروكلمان » (٢) و « كنج » فى كتابه « تاريخ سومر وأكاد » (٣) و « شولن » فى دائرة المعارف الكاثوليكية و « جون مير » و « استانلى كوك » (٤) و « كروبر » و « إرمان » شيخ العلماء فى الآثار المصرية و « دى مورجان » وغيرهم .

ويرى « كروبر » (٥) أن جزيرة العرب كانت أشبه شىء بخلية النحل ، وأن بعض انبعاث الساميين إلى ما حولهم من البلدان كان انبعاث غزو وفتح منذ أول يوم ، وبعضه كان غلبة بالعنف والقوة بعد جهاد وكفاح طويلين ، بينما كان البعض الآخر تسللا واندماجا .

وقد استطاع « كروبر » أن يميز بين أربع هجرات سامية مختلفة فى العصور التاريخية القديمة : أولاها حوالى ٣٠٠٠ سنة ق م ، والثانية حوالى ٢٠٠٠ سنة ق م ، والثالثة حوالى ١٤٠٠ سنة ق م ، والرابعة حوالى ٧٠٠ سنة ق م ؛ ثم جاء انسياب العرب تحت ألوية الاسلام بعد ذلك بنحو أربعة عشر قرناً .

أما « إرمان » و « دى مورجان » فيذهبان إلى أبعد من هذا : يذهبان إلى القول بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين والحاميين معاً ، وأنها هى المقر الذى هاجر منه المصريون القدماء إلى وادى النيل (٦) ، وأن الجنس الحامى إن هو إلا

---

(١) راجع Hubert Grimme, Mohammad, 1904, PP. 6 - 8.

(٢) راجع Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprache.

(٣) راجع History of Sumer and Akkad, P. 119.

(٤) راجع Cambridge Ancient History, 1, 192.

(٥) راجع A. L. Kroeber, Anthropology, P. 451.

(٦) راجع De Morgan, Recherches sur les origines de l'Egypt 1897, II, 219, 222 and 228.

جنس سامى تغيرت صفاته ، واختفت مميزاته على مر الزمن ؛ لاختلاطه بزنوج أفريقية (١)

ويعتقد « دى مورجان » أن جزيرة العرب كانت معمورة قبل العصر الجليدى الأخير ، وأنه لما جاء أمر ربك وفار التنور ، وطغى عليها الماء فى آخر ذلك العصر ، آوى كثير من سكانها إلى حضرموت ، والجبال المشرفة على البحر الأحمر (بحر القلزم) يعتصمون بها ، حتى إذا أقلعت السماء ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، عاد فعمر هؤلاء ومن تحدر منهم جزيرة العرب أكثر مما عمرها آباؤهم الأولون ، وكان منهم الساميون الذين هم موضع حديثنا اليوم (٢) هذا هو الرأى الثانى وعليه جمهور العلماء .

ونلاحظ هنا أن جل أصحاب الرأيين المتقدمين هم من فقهاء اللغة وعلماء الرأى السامى .

(٣) الرأى الثالث ـ رأى القائلين بأن شمال إفريقية هو المهد الأول للساميين قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب ، وهو رأى « بالجريف (٣) و « جرلاند (٤) ، و « برتن (٥) ، و « موريس جسترو (٦) ، و « كين (٧) ، و « ورل (٨) ، وغيرهم من الشعوبيين .

---

(١) راجع Erman's artical in « Die Tlexiondes agyptischen Verbums »

(٢) راجع De Margan « Prehistoire Orientale, 1, PP . 202,?08-9

(٣) راجع Palgrave's artical « Arabia » in the Encyc. Brit.

(٤) راجع Gerland's artical « Ethnography » in the Iconographic Encyc. Vol. I.

(٥) راجع Journal of the Anthropological Institute, XI, 431.

(٦) راجع Jastrow, Cradle of the Semites, P. 13.

(٧) راجع A. H. Keane, Ethnobogy, and Man, Past and Present.

(٨) راجع W. H. Worrell, A Study of Races in the Arcient East.

ويرى « بالجريف » أن الشبه الجنسى القوى بين العرب والأحباش وأمم البربر وغيرهم ، وخصوصا فى شكل الفك ، ودقة عظم الساق ، ثم شدة الشبه الاجتماعى واللغوى بين تلك الأمم يدعو إلى القول بأن الساميين الخلص ليسوا من أصل أسيوى وإنما جاءوا إلى جزيرة العرب من إفريقية .

وقد وصل « جرلاند » إلى النتيجة نفسها على أساس الشبه الجسمى ـ كشكل الجمجمة مثلا ـ والشبه اللغوى أيضا ، وهو يزعم أنه يمكن رد جميع الأمم السامية إلى أصل إفريقى ، وذلك لأنه يعتقد بالوحدة الجنسية لشعوب إفريقية ، ويعتبر الساميين فرعا منها .

وفى سنة ١٨٨٢ دافع « برتن » عن هذا الرأى دفاع الأبطال ، وذهب إلى القول بأن الساميين والحاميين ربيبا أرض واحدة ، هى شمال إفريقية ، وأنه لما فصلت الأمم السامية إلى جزيرة العرب ركبت طريق السويس إلى بطرة ، حيث ألقت عصاها واستقرت بها النوى ، واكتسبت خصائصها الشعبية ، ومميزاتها الجنسية .

وفى سنة ١٨٨٢ أيضاً قبل « نولدكه » هذا الرأى ، ولكنه ذكره كفرض محتمل لا نظرية ثابتة (١) .

وقد حاول « برتن » (٢) فى كتابة « مهد الساميين » أن يعين الموضع الذى هاجر منه الساميون فى شمال إفريقية ، وهو يقول : إن الأساطير المشهورة ، وعلم مقارنة اللغات ، وعلم الشعوب ، وعلم العمران ، تدل كلها على أن أودية جبال الأطلس الجميلة المشرفة على المحيط ، هي مهد الساميين الأول قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب

أما « ربلى » فبعد أن عرض الآراء المختلفة فى كتابه « شعوب أوربا » ختم بحثه بقوله : إن خصائص العرب الجسمية تؤيد رأى « برتن » و « جسترو » فى أنهم انحدروا من أصل إفريقى (٣)

(١) راجع Noldke, Die Semitischen Sprache, p. 9, also. his Artical « Semitic Languages » in the Encyc. Brit.

(٢) راجع Cradle of the Semites, Also Races and Peoples, p. 132.

(٣) راجع The Races of Europe, p. 376.

ويرى ، كين ، [١] أن جهات موريتانيا أو بلاد المغرب هى مهد الجنس القوقازى بأجمعه ، بله الساميين والحاميين ، وأنها البقعة التى فصلوا منها إلى مساكنهم المختلفة ، ثم عاد فذكر فى كتابه ، الإنسان ماضيه وحاضره ، أن جزيرة العرب هى الوطن الأول الذى استوطنه الساميون بعد خروجهم من إفريقية ، والذى منه تفرقوا أيادى سبا وأما شتى إلى مساكنهم القومية [٢] هذا هو الرأى الثالث وهو رأى الشعوبيين على الخصوص .

ونلاحظ هنا أن هذا الرأى لا يتعارض مع الرأى القائل بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين ؛ إذ معنى ذلك أن الجزيرة العربية هى الوطن الأول الذى سكنه الساميون بعد خروجهم من إفريقية والذى فيه تكونت خصائصهم الشعبية ، ومميزاتهم الجسمية ، والذى منه تفرقت شعبهم المختلفة إلى مساكنها القومية المتباينة .

(٤) الرأى الرابع

موعدنا به العدد التالى إن شاء الله تعالى ..

محمد محمود جمعه

---

(١) راجع Ethnology, p. 302.

(٢) راجع Man, Past and Present, p. 490.